صور بات الاعلام

المطران جرمانوس فرحات

١٦٧٠ - ١٧٣٢

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

في العاشر من تموز الفائت ، كنت وأحد كهنتنا العلماء الاجلاء نذكر حبراً فاضلاً وعالماً عاملاً قضى في مثل ذاك النهار ، قبل تسع وتسعين ومائة سنة ، تاركاً للآداب العربية آثاراً قلما تركها لها احد اربابها منذ عصر الانحطاط ، ومخلفاً لنصارى لبنان مثالاً حياً اشبه بمثال نتاكه القدماء ساكني كهوف الوادي المقدس ، ومعطري ارجاء الارز الخالد. ذكرنا السيد جرمانوس فرحات ، مطران حلب الماروني ، صاحب الفضل العميم على الحياة الرهبانية في لبنان ، وعلى النهضة الادبية الحديثة في انحاء الشرق . ذكرنا اللغوي الماهر ، والنحوي الدقيق ، والشاعر المخلص ، والمهذب اليقظ المتفاني في تسهيل اساليب الدرس والتحصيل ؛ كما ذكرنا الراهب المتقشف ، والكاهن الغيور ، والاسقف الصالح الساهر على نفوس رعاياه . ذكرنا كل ذلك وترقمنا الاحتفال بمرور مائتي سنة على وفاته في ١٠ تموز ١٩٣٢.

ثم آلمنا ، في هذا الموضوع ، ما نرى من الفرق بيننا وبين الاجانب. وذلك اننا لا نكاد نفتح جريدة اجنبية الّا ونرى الاشارات متتابعة الى التذكارات المختلفة . فهنا يحتفلون بمرور خمسين سنة على ولادة العالم الفلاني ، وهناك يكرّمون ذكرى الكاتب الآخر لمرور مائة سنة على نشر أثره الفلاني ، وهنالك يقيمون تمثالاً بنسبة انقضاء الف سنة على وفاة الشاعر الملهم فلان. . . وهناك ايضاً المخترع ، والفيلسوف ، والمفكر ، والقائد ، والمؤسس ، والطيار. . . حتى اذا اعوزتهم الشخصيات وضاقت بهم الموضوعات الحسية المعروفة ، عمدوا الى النكرات يقيمون منها امثلة ورموزاً جديرة بمجالي تعظيمهم واعتبارهم ،

فكرّموا الجندي المجهول ، واحتفلوا بذكرى المعاهدات ، واقاموا للحرية تماثيل ... أما نحن فتمرّ السنون والقرون على ذكريات عظمائنا ، ولا نكاد نفكّر فيهم . واذا فكرنا فبقصيدة رنّانة ننظم فيها صفات العزّة الالهية ونقلّد بها جيد عظيمنا دون تحفّظ ولا احتياط ، او بخطبة طنّانة نرصف فيها القاب التعظيم والتبجيل ونطبّقها على ممدوحنا دون تدقيق ولا تمحيص . حتى نفقد قياس الشخصيات الحقيقي ، ونشرك اعلامنا شركة النبن في نموت وصفات نكيلها جزافاً لاول مجتدٍ ، غيرَ مستثنين من ذلك احداً ...

هذا الاهمال في تكريم عظمائنا ، بل هذا النوع من الاحتفال بتكريمهم ، هو ما آلمنا ؛ فاردنا ان يكون احتفالٌ بذكرى المطران جرمانوس فرحات ، وان يكون على طريقة تخرج في مظهرها ورمزها وفائدتها عمّا ألفناه من القاء الخطب وانشاد القصائد . واقترحنا تفكر كلّ من جهته في اعداد مشروع لهذا الاحتفال .

ثم اتت العطلة المدرسية . وألمّ بمجدّي الفاضل داء شديد مضنك هدّ تلك القوى الجبّارة ، واطفأ ذاك السراج الساطع . ولم تتخلّص النفس من تباريحه الّا منذ ايام ، اذ ارادها الله لواجب اسمى فاستدعاها الى عالم أكمل . فاصبحت ذكرى المطران فرحات اعزّ عليّ ، وواجب الاحتفال بها اعلق بقلبي ، وقد اقترنت بذكرى ذاك الصديق العطوف بل الاب الجليل [1] .

وكان ان الشهباء تحفّزت للاهتمام بالاحتفال ، فكان من نصيبها ان تكون السابقة الى هذا الواجب بل الى هذا الشرف ، ولا غرو فقد كان المطران فرحات ابنها البارّ وراعيها الصالح

ولنا ملء الامل ان ابناء اللغة العربية سواء أكانوا في الوطن او في المهاجر ، لا يتأخرون عن مشاركة ابناء حلب في واجبهم . فيؤلفون اللجان الفرعية ، ويعملون معاً على اقامة التمثال واحياء التذكار ؛ وعلى كل ناطق بالضاد فرض تكريم من رفع منار الضاد عالياً في عصر خيّم فيه الخمول على اكثر مناطقها .

* * *

---

١) هو فقيد اللم والوطنية والتقوى المرحوم الخوري بطرس غالب ، مَن ترى كلمة عنه في غير مكان من هذا العدد .

بيدَ ان لنا كلمة في نوع الاحتفال نبديها بكل اخلاص ، آملين ان يحملها المطالبون ايضاً على محمل الاخلاص نفسه ، رامين الى فكرة نراها ضرورية ونؤمل ان يطبّقها المحتفلون في سنّ مناهجهم ، فيضعون مثالاً سامياً للاحتفالات القادمة — وما سيكون اكثرها في المستقبل ان شاء الله ! — يصرفها عن مباراة الخطباء ومنافسة الشعراء الى درس الحياة درساً دقيقاً علمياً ، واحياء ذكرى المحتفَل به على طريقة تعرّفه الى المحتفلين . فيرونه امامهم واضح المظهر ، جليّ الشخصية ، بشرياً يمكن السير على آثاره ، ومتفوّقاً يجب الاقتداء به . اذ ما الفائدة من وضع كل من اردنا تكريمه فوق البشر لا تصل اليه ابصارنا الّا كليلة ، ولا تطمح الى الاقتداء به نفوسنا الّا عاجزة .

كان المطران جرمانوس فرحات رجلَ دين ، وكان رجلَ علم . فوجب ان يكون درس شخصيته على قسمين اجماليين يتفرّع عن كل منهما مظاهر مختلفة لتلك الشخصية البارزة . ففي رجل الدين نرى الكاهن ، والراهب ، والاسقف . وفي رجل العلم نعرف اللغوي ، والنحوي ، والشاعر . تشمل كل ذلك صفة المؤلف البصير ، والمهذّب اليقظ ، والمُصلح الخبير .

اما الكاهن فله مواعظ وارشادات واعمال تمهيدية لتعليم الرعية وتروّيض النفوس[1] ، يحسن باحد كهنتنا الافاضل ان يدرسها جميعاً فيستخرج منها صورة كاملة للمحتفل به ، وبالتالي للكاهن الماروني في ذاك العصر .

واما الراهب فقرينه سيرة نسكية قشفة ، وحياة مطمئنة الى السكون مقضيّة بين الابتهالات والتأليف ، بين فرائض العبادة وواجبات العلم . حياة ساكنة ولكنها مثمرة . ويكفي ان يدرس احد رهباننا العلماء كتاب « المحاورة الرهبانية » او « تعليم الراهب » ، و« مجموع قوانين الرهبانية » حتى يستنتج ما كان عليه ذاك الراهب العامل من بعد النظر وعمق الفضيلة .

واما الاسقف فله اصلاحات وتجديدات روحية ومادية لا تنساها مطرانية حلب ، بل لا ينساها الاساقفة اجمعين . وكم يكون مفيداً لو تفضّل احد سادتنا الاجلّاء فاظهر ما تدل عليه من اهتمام بامور الرعية ، ومن سهر على تهذيب كهنتها ،

---

١) من ذلك « كتاب الرياضة » ، و« مختصر سُلّم الفضائل » وغيرهما .

ومن حسن ادارة وكمال ضبط تلك الارشادات والنصائح البارزة بكل وضوح وجلاء في « التحفة السرية لافادة المعرّف والمعترف » ، و« فصل الخطاب في صناعة الوعظ » ، و« رسالة تعليم الصلوة العقلية » و« رسوم الكمال » و« رسالة الفرائض والوصايا » .

هذه ثلاثة مظاهر تدور حولها اعمال المحتفل به ومآتيه في محيط الدين ، دالّة على الصفات المختلفة التي تتوافق جميعاً وتتجه كلها الى تمثيل رجل الدين في المطران جرمانوس فرحات.

ويقابل هذه المظاهر الثلاثة ثلاثة مظاهر اخرى تمثل لنا رجل العلم . ويكون رسمها على نحو ما قدّمناه :

فنبحث اولاً في صفة اللغوي وما امتاز به من طريقة في قاموسه المشهور ، وفي سائر تآليفه اللغوية « كالمثلثات الدرية » وما اليها . ولا يكفي في هذا الموضوع ان نقول : ألف ، وجمع ، وترك. بل يجب ان ندرس كيف ألّف ، وعلى اي طريقة جمع ، وما هي قيمة ما ترك . هل ابتكر شيئاً في آثاره اللغوية ، وهل سهّل درس اللغة ، ام قلّد مقلّدي المقلّدين منذ عصر الانحطاط الى يومه ذاك ؟

على ان المجال اوسع في الكلام على المطران جرمانوس نحوياً ، و« مجث المطالب » لا يزال متتابع الطبعات ، متداولاً في الكثير من المدارس ، يتعنق في درسه الطلّاب ويستفيد منه المؤلفون . واسلوب الكتاب ، في عصره ، مثال حيّ لما يجب على المؤلفين اتباعه في تسهيل التدريس وتقريب القواعد من فهم الدارسين ، مع صرفها عن الاختصار المخلّ والميل بها عن القوالب الجافة التي تميّز الكثير من الكتب المدرسية . هذا ما ابتدعه المطران من اسلوب في تدريس الصرف والنحو ، وان هذين العلمين ليشكران له طويلاً هذه البدعة النافعة . يلحق بذلك ما ألفه في العروض والقوافي والمعاني والبيان « كرسالة الفوائد » و« التذكرة » و« الفصل المعقود » و« بلوغ الارب » وغير ذلك. مما يجب تحليله ودرسه أثراً اثراً ، فالدلالة على حظّه من التجديد والابتكار.

واما الشاعر « فالديوان » كفيل باظهار صفاته ، سواء أكان من حيث

الموضوعات وما فيها من تجدّد او تقليد وتنوّع او وحدة سياق ، او من حيث الاسلوب وما امتاز به من متانة او ضعف ، من ابتكار او ابتذال . ثم يجرّ ذلك الى درس القوى الشعرية من شعور ومخيّلة وعقل ، وطريقة توازنها وتآلفها في المطران الشاعر.

* * *

هذا وليس درس هذه الآثار بالمستحيل ، اذ ان كلها معروف ، واكثرها معاد طبعه مرّات . فاذا تفرّغ لها عدد من الادباء ، كل في الموضوع الذي يدخل في اختصاصه ، كان لنا مجموعة نفيسة من الدروس النقديّة الممتازة. نخللها بذكر آثار المؤلف الثنويّة من معرّبات ومختصرات ومصحّحات، نُلحق كلًّا منها بالفرع الذي تتصل به . ونقدّم على كل ذلك مقدّمة واسعة في حياة المحتفل بذكراه وصفاته الرجولية. فيكون لنا مجلّد كثير المادة ، جامع الابحاث، مصيب الاحكام.

وكي تتمّ الفائدة ، وتكمل لنا ، على افضل ما يمكن ، شخصية المطران جرمانوس فرحات ؛ يجب ان نزدف مجلّد الابحاث هذا بمجلد آخر نضمّنه منتخبات نختارها من آثار المطران المختلفة في جميع الموضوعات التي ساعدتنا على درس مظاهر شخصيته . فتكون رسوماً مختلفة لذاك الرجل الكبير ، ومستندات دقيقة قيّمة لما تقدّم من الاحكام الادبية عليه.

فيكون عملنا ، والحالة هذه ، مبتكرًا في نوعه ، مفيدًا في ابحاثه ، لائقاً بتكريم من وُضع لاجله . وهو ، اذا ظهر بالطبع ، كان حدثاً ادبياً مهماً ، ومثالًا ناطقاً موثّرًا في نهج الاحتفالات التكريمية في بلادنا . فضلًا عن انه يكون خاصاً بالمطران جرمانوس فرحات،لا فضفاضاً مضحكاً ولا مقصرًا شائناً. فيمثله في اذهاننا ويحيي ذكراه في قلوبنا اكثر بما لا يُقاس من عشرات الخطب الطنّانة المبتذلة ، ومئات القصائد الرنّانة الجوفاء.